إنى وجدت فيها الأجابة على نداء نفسي الذى كانت تهتف به منذ فجر الشباب . لقد وجدت فيها ربما أطفأ ذلك الهيام الى المجهول الذى كان يجعل العالم أمامى كرادى التيه اسير فيه على غير هدى .

وغابت عنى فعدت الى عالمى القديم صفر اليدين الا من ميت الآمال !

ومرت سنون ثلاث . . . وذات يوم كان (حقى) يسير فى شارع فؤاد فلمح اسم صديقه ابرديم . . المحامى ، على لوحته النحاسية — بين لوحات أخرى تحمل اسماء كثيرين اغلبهم اطباء — معلقة على باب العمارة ، وفجأة خطر له أن يزور هذا الصديق فى مكتبه .

ولم يكد يتخطى الباب الكبير حتى وجد فتاته . . . ليلى ! نعم هى كما كانت دائما . . . وجدها واقفة تتلى بقراءة البطاقات الموضوعة على صناديق البريد فى مدخل العمارة ، وكأنما كانت تنتظر احدا . والتقت نظراتهما ، وحار فيما هو فاعل ، ولكنه لم يدر الا وقد تقدم اليها وهو يقول :

ليلى — ! لم لم تأت يوم الثلاثاء الماضى ؟ كنت مريضة ؟ هذا هو عذرك الدائم .

وكان يوم الثلاثاء الذى يعنيه قد مرت عليه سنون خمسة ! ولكنه حين أخذ يدها بين يديه يشد عليها نسى أنه لم يرها طوال هذه المدة وهكذا شعرت هى الأخرى ، وكأنما هذه السنين قضياها كأهل الكهف نياما !

وأغمضت عينيها وكأنما أرادت أن تكر بالذاكرة الى هذا الماضى البعيد وقالت وهى تبتسم :

— كلا لم أكن مريضة ولكن حدث أن أمى خرجت معى ولم يكن فى امكانى أن أستصحبها فى زيارتى لك . قال :

— حاجاتك لاتزال فى درج مكتبى . كنت انتظر دائما دقات الجرس الخمس ، فأذهب لاقابلك بها على الباب .

لقد اشتريتها اذن ! لم أكن أحسب أنك تعتقد أنى كنت جادة فيما طلبت . . . هى صديقتى التى أغرتنى . . . تجربة لعاطفتك نحوى . ولكنى أخطأت فى السماع اليها ، وخفت ان أنا عدت اليك أن تعتقد انى انما أعود لاسألك ماطلبت

ودارت الدنيا امام عينيه ، وقال لنفسه « ما أكثر مايخطىء الانسان التقدير ! »

وفجأة رآها تتركه — وقد عراها ارتباك ظاهر — وتنظر الى الباب حيث وقفت عربة ، نزل منها شاب ناداها باسمها فهزت رأسها تجيبه ، ودارت بنظرها الى يمين المدخل منادية ياحقى !

وأصابته رجفة اذ سمعها تلفظ اسمه ، ولكنها كانت تنادى طفلا — فى نحو الرابعة من عمره — لم يكن الفتى يراه اليه . وأجابها الطفل متسائلا — ماما ؟

فمدت يدها الى الطفل ورفعت نظرها الى الفتى كأنما تسأله ان كان قد فهم شيئاً .

وركبت الفتاة والشاب والطفل العربة ، وانطلقت بهم ووقف حقى يتبعها بنظره ويصغى لوقع اقدام جيادها على الارض ، ويسمعه دون كل ماعداه من ضجة الطريق الصاخبة ، حتى لم يبق منه غير صدى يرن فى الاذن رنينا

وحينئذ أحس كأنما بدأت الارض تميد . . .

مصطفى حمدى القوني

الى خراسان

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

من رحلة قام بها الأستاذ سنة ١٩٣٣ الى تركية والعراق وأفغانستان

الى بحر الخزر

قمت من طهران شمالا صوب بحر الخزر ، مسافة ستين فرسخاً أو نحو أربعمائة كيلومتر ، كانت المناظر فى النصف الأول منها مألوفة : ربى تتوسطها هوى من أرض مهملة ، وما كدنا نوغل فى النصف الأخير حتى زادت عقد الجبال فى صخرها الاغبر المنحل وغالبه من الجير الذى اسود بمضى السنين ، وكثرت الالتواءات الارضية وزادت طياتها وأخذ الطريق يعلو ويهبط ويلتوى على نفسه مرات متعاقبة فى وعورة لم نعهدها من قبل . بعد ذلك بدأت صفحة الجبال المعقدة تتغير معالمها اذ كساها الشجر القصير فى تفرق أعقبه تلاصق عاجل ، وما نشعر الا ونحن نوغل فى غابة كثيفة ذكرتنى بمناطق الغابات الافريقية ، وكنا بجانب وادى نهر يسمونه (النهر الابيض) يتلوى ليات متعاقبة وسط تلك الجبال اللانهائية ، وكان ماؤه آسنا اذ يفيض بالماء ابان الشتاء حين تكثر الثلوج التى تكسو تلك الجبال — جبال البرز — ولقد ظلت المناظر رائعة ساحرة خلاف ماعهدناه فى ربى ايران المنفرة التى عريت عن النبت ، ونضبت مياه مسايلها . وكانت بعض الوهاد وما يزينها من قرى صغيرة أشبه بلاد اسكندناوة وسويسرة ، على أن الشجر مختلف اذ لم أر للصنوبر من أثر حتى فى أعالى الذرى ، وكله من أشجار المناطق الحارة

تكثر حوله الطفيليات والأعشاب المتسلقة التي تسد الغابة سداً ولذلك يطلق عليها القوم كلمة (جنجل) الانجليزية ، وكلما قاربنا بلدة (الرشت) بعدت الجبال وانفسح السهل وغص بالقرى والمزارع التي شهرت من أجلها البلدة وبخاصة في الأرز والطباق ، وهـذه الناحية أشهر بلاد فارس الزراعية . أخيراً دخلنا الرشت التي كانت

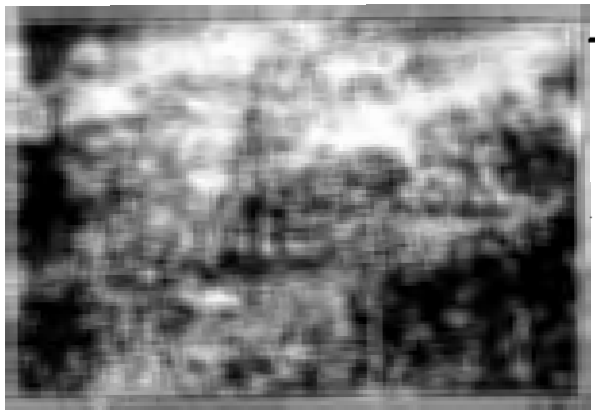

الميدان الرئيسي في رشت

عاصمة بلاد الديلم قديما ، وهي اليوم عاصمة مقاطعة (جيلان) الفارسية فبدت مدينة عامرة أخف روحا من طهران نفسها ، وقد حاكت المدن الاوربية ، ويظهر أنها تأثرت طويلا بالروس يوم كان لهم النفوذ في هذه المنطقة ، لذلك كانت جموعهم كثيرة ، نساء ورجالا ، واللغة الروسية يعرفها الجميع الى جانب لغتهم الفارسية . وغالب البيوت من طابق واحد تظهر وكأنها اقيمت كلها من جديد ، وهي ذوات سقوف متحدرة يكسوها الآجر الاحمر خلاف ما شاهدنا في سائر جهات فارس ، ذلك لان مطر المنطقة غزير يفوق مقداره المتر ، ويعزى الى رياح شمالية غربية سائدة تهب من بحر الخزر على تلك المرتفعات فتدفعها مطرا وتكسو ذراها ثلجا ، وتزيدها في الشتاء أعاصير البحر الابيض التي تندفع من بحر قزوين الى بحار الهند الدفئة خفيفة الضغط ويظل المطر زهاء ثمانيـــة شهور ولم تخل السماء من الغيوم وكان الجو اميل الى الرطوبة حتى في هذا الفصل الجاف ، لذلك قل بها التراب الذي كان ينغصنا في بلاد فارس كلها ، وكان هجوها لطيفا محتملا عن جو طهران ، الا اذا انكشفت الشمس فعندئذ يصبح الحر شديدا . على ان الجهة تعرف بكثرة الاوبئة والحميات بسبب الحرارة والرطوبة معا ، وقد زادها حرا انها على منخفضات بحر الخزر التي تنخفض عن مستوى البحر بنحو خمسة وعشرين مترا لذلك يجري القول على لسانهم : ماذا أذنب فلان حتى يولى حاكما على الرشت . على ان حظي كان موفقا اذ كانت أيامي هناك أجمل أيام قضيتها في ايران كلها . وفي المدينة مجموعة من متنزهات منسقة تقوم بها المقاهي ، وفيها تسمع الموسيقى الشجية وقد اختلطت الانغام الفارسية بالروسية ، وكلاهما مما تستريح له آذاننا .

اقلتنا السيارة الى بهلوي على شاطىء بحر الخزر — ولا يسمونه هناك بحر قزوين ابدا — فكان الطريق يمتد اربعين كيلو مترا وهو يتلوى وسط الاحراج المغلقة يؤمها النمر والحيوان المفترس ومن أعجب ما رأيت فيها الكروم البرية التي كانت تنمو في كل ارجائها ومنها نقلت كروم أوربا . اخذ الشجر ينضمر ويندر كلما قاربنا البحر ثم انعدم ، واضحت السهول تكسى ببساط من خضرة الى البحر ، وكانت بيوت القوم اخصاصا من الأعواد والخشب يكسوه القش الثقيل في شكل مخروطي او متحدر السقوف ، كأنها مساكن الغابات الاستوائية على ضفاف فكتوريا نيانزا . والقوم يستأصلون الاحراج في مسافات يزرعونها من الارز والطباق والقطن والكتان ، والعمل يقع كله على السيدات اللاتي كن يظهرن في ملاءات بيضاء ناصعة وقد استرعى جمالهن نظري ، فهو مخالف للسحن الفارسية البحتة ويظهر أن اختلاط الروس بالفرس هناك اكسب أولئكن جمالا عالج كبر الانف الفارسي ، وأشرب اللون الفارسي الابيض بعض الحمرة الروسية الجذابة ، والناس في تلك الناحية يمونون أنفسهم بكل شيء من عمل ايديهم حتى الملابس ينسجونها من القطن والكتان والحرير — وهم يربون دود القز بكثرة

على شاطىء بحر الخزر في بهلوي

دخلنا بهلوي فكانت بيوت الفقراء اخصاصا ، على نمط تلك التي في الغابات ، يحفها سور من غاب ، وعلى البحر اقيمت الميناء بروافعها وبواخرها وزوارقها ، وتلك الناحية يسمونها (غازيان) واذا ركبت البحر اقبلت على شبه جزيرة تبدو عليها المباني الفاخرة والشطآن المنسقة ، وهذه هي بهلوي أو أنزيلي القديمة ، ركبت البحر اليها

فى ربع ساعة ، وإذا بها آية فى التنسيق والنظافة ، بيوت فخمة ، وطرق مرصوفة ، ومتنزهات عدة ، وقد مدت على شواطىء البحر الحدائق والمقاهى ، فكنت وكأنى فى احدى مدن الرفيرا تماما . وفى الحق ان تلك الناحية من فارس فريدة ، تختلف عن سائر جهات فارس فى كل شىء : فى طبيعة الارض ، وفى الجو ، وفى النبت ، وحتى فى أهلها فهم أكثر نشاطا وجمالا . أما الناحية الخلقية فهى هنا أكثر فساداً ، ولا شك إن للاباحية الروسية أثراً كبيرا فى هذا

السهول المؤدية الى بحر الخزر وتكاد تسدها الاحراج

ولقد حققت حلما طالما جال بخاطرى هو أن أركب بحر الخزر — بحر طبرستان قديما — وأطوف بسواحله ذات الطبيعة المختلفة من غابات كثيفة تغص بها سواحله الجنوبية ، الى غابات جبلية فى غربه ، الى كلأ وعشب صحراوى فى شرقه ، الى أرض مالحة مهملة فى شماله . لكن الشبح الروسى لم يتح لى التجوال كاملا فلبثت اليوم كله أجول فى مياهه الفارسية ، وقد كان ماؤه هادئا ، على أنه إبان العواصف يعلو موجه ويضطرب ، وقد تذوقنا ماءه فاذا به نادر الملح على خلاف ماعهدت ، فخلنا أن ذلك راجع الى قرب المصاب العذبة . لكن القوم يعرفونه أميل الى العذوبة فى كل أرجائه وأيدوا رأيهم بكثرة أسماكه نوعا وعدداً . ولذلك كانت مصائده هامة للدولتين الفارسية والروسية ، حتى أضحى السمك الغذاء الرئيسى ، فهو والارز عماد الطعام ، وقد كان لهما أثر حسن فى اجسام الاهلين ، فهى ممتلئة ولم أعثر على القامات الطويلة والاجساد السمينة الا فى تلك الناحية من فارس كلها

اصبحنا يوم الجمعة والجو جميل ، والسماء تنتثر بالغيوم بعد ان امضينا ليلتنا فى نزل (سافوى) فى الرشت ، وهو يطل على ميدان البلدية ، تتقدمه الطرق المستحدثة ، وتزينه المتنزهات ، والمنظر من شرفة النزل رائع : السماء تنقشها السحب ، والخضرة تمتد الى الآفاق ، والمبانى حولنا أنيقة ، وجماهير الناس فى أنظف ثيابهم - لأن يوم الجمعة يوم الراحة القومية . يروحون ويغدون فى كثرة تسترعى النظر ولا يخلو الجمع من طائفتين الغانيات فى ازرهن السوداء المهفهفة والمتسولين الذين يمسكون بتلابيبك ويصيحون فى نغمة اليائس المستميت ، واكفهم مبسوطة وكثير منهم من يظهر فى هندام نظيف ووجه مشرق ، يدل على أنهم على شىء من اليسار ، لكن التسول أضحى فى القوم عادة متأصلة ذميمة . وكثير من مبانى الرشت وبهلوى بالخشب لكثرة الغابات حولهما ، لذلك ترى فى كل برجاً عاليا يظل فيه الرقيب صباح مساء لينذر بالحريق إذا ما بدا دخانه أو لهبه فى أية ناحية من البلدة .

قمنا مودعين تلك المنطقة البديعة التى تصلح للراحة فى الربيع والخريف . وأخذت سيارتنا تشق الخضرة التى زادت كثافتها تدريجا ، وبعد ثلاثين كيلومتراً بدت جبال البرز ، أعنى أن السهول تمتد الى بحر الخزر سبعين كيلو مترا ؛ وكانت الأشجار الكثيفة تغطى الجبال الى أعلى ذراها ، والربى تبدو مدرجة الواحدة وراء الأخرى ، وسحاب السماء يكاد يلامسها وإن لم يبد للثلج فوقها من أثر . وكانت طيات الوديان بمائها الشحيح تختفى وراء النجاد تارة ثم لا تلبث أن تتكشف فى مباغتة تقر لها العين . وكان المنظر العام ونحن وافدون من الرشت أروع منه لمن يدخل البلدة قادماً من طهران . وظل جلال الغابات حولنا زهاء خمسة وعشرين كيلو متراً ، ثم ندر الشجر وانعدم فجأة ، وأضحت عقد الجبال قاحلة منفرة مسافة ذرعها سبعون كيلو مترا ، كان الطريق فوقها طيات قاسية رهيبة ، خصوصا فى ضوء القمر الشاحب ، وفى سكون الليل الرهيب .

قراءة الافكار وعلوم نفسية

ملكات العقل الباطن